

تفسير ابن كثير

يقول تعالى آمرا خلقه بتقواه وهي عبادته وحده لا شريك له ومنها لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة وهي آدم عليه السلام { وخلق منها زوجها } وهي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم فاستيقظ فرآها فأعجبته فأنس إليها وأنست إليه وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا محمد بن مقاتل حدثنا وكيع عن أبي هلال عن قتادة عن ابن عباس قال : خلقت المرأة من الرجل فجعل نهمتها في الرجل وخلق الرجل من الأرض فجعل نهمته في الأرض فاحبسوا نساءكم وفي الحديث الصحيح : [إن المرأة خلقت من ضلع وإن أوج شيء في الصلع أعلىه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج] قوله : { وبث منها رجلا كثيرا ونساء } أي وذرأ منها أي من آدم وحواء رجلا كثيرا ونساء ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر ثم قال تعالى : { واتقوا إِنَّمَا الَّذِي تَسْأَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } أي واتقوا إِنَّمَا بطاعتك إِيَّاه قال إبراهيم ومجاهد والحسن { الذي تسألون به } أي كما يقال : أسلك بِإِنَّمَا وبالرحم وقال الصحاك : واتقوا إِنَّمَا الذي تعاقدون وتعاهدون به واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن بروها وصلوها قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن والصحاك والريع وغير واحد وقرأ بعضهم : والأرحام بالخض على العطف على الضمير في به أي تسألون بِإِنَّمَا وبالأرحام كما قال مجاهد وغيره قوله : { إن إِنَّمَا كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } أي هو مراقب لجميع أحولكم وأعمالكم كما قال : { وَإِنَّمَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } وفي الحديث الصحيح [اعبد إِنَّمَا كُلُّكُمْ تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك] وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ليعطف بعضهم على بعض ويحننهم على ضعفائهم وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه أولئك النفر من مصر وهم مجتابو النمار - أي من عريهم وفقرهم - قام خطب الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } حتى ختم الآية وقال : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا إِنَّمَا وَلِتَنْتَظِرَ نَفْسًا مَا قَدَّمَتْ لَغَدِّ } ثم حضهم على المصدقة فقال : [تصدق رجل من ديناره من درهمه من صاع برره من صاع تمره] وذكر تمام الحديث وهكذا رواه أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود في خطبة الحاجة وفيها ثم يقرأ ثلاثة آيات هذه منها { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ } الآية